التَّفكير اللُّغوي عند مَدرسة الفيرثيين الجُدد

Neo-Firthian School

د. صفوت علي صالح(*)

ملخص

إذا كان من الجائز أن يوصف تقديم المدارس اللغوية الحديثة في الدرس اللغوي العربي بأنه توقف (أو كاد أن يتوقف) عند الأفكار اللغوية التي قدَّمها فيرث في القرن التاسع عشر فيما يُعرف بالمدرسة البريطانية (أو مدرسة لندن الاجتماعية)، والتي نقلها إلى الفكر اللغوي العربي تلاميذه من اللغويين العرب أمثال اللغوي الفذ الدكتور كمال بشر، واللغوي المؤصِّل الدكتور تمام حسان ـ رحمهما الله؛ فإن هذا البحث يحاول أن يواصل المسيرة ويقدِّم للباحث العربي بعض الأفكار اللغوية التي توارثها تلاميذ فيرث وطوروها وأخضعوها للتحليل التطبيقي، ومن ثم تولَّدت عنها أفكار ومناهج جديدة، ومصطلحات ومفاهيم مستحدَثة اشتهرت بها مدرسة "الفيرثيين الجدد". وإذا كانت المبادئ اللغوية لهذه المدرسة ومناهجها التحليلية ومفاهيمها الاصطلاحية قد لقيت كثيرًا من الاهتمام والتطبيق في الدراسات والبحوث اللغوية في الغرب؛ فإنها لم تلقَ حظها بعدُ في الدراسات اللغوية العربية. ويكفي لإثبات هذا الاهتمام أن نطالع الأعمال الموسوعية، والشروح النظرية، والبحوث التطبيقية التي تناولت (أو تبنَّت) منهج "الوحدة اللغوية الممتدَّة" لجون سِينْكِلِير، أو "الاستدعاء الذهني للوحدات اللغوية" لمايكل هووي، أو "التطريز الدلالي" لبيل لوو، أو "الأنماط التركيبية" لسوزن هَنسْتِن وفرانسِس، أو التحليلات التطبيقية "القائمة على المدونات اللغوية" لمايكل استابس ودوجلاس بايبِر وتوني مِكِنْري وغيرهم. ومن هنا، تأتي أهمية هذا البحث في تقديم هذه المدرسة للباحث العربي وأبرز أفكارها ومناهجها ومفاهيمها؛ وكيف أسهمت في دراسة الكيفيَّة التي تعمل بها اللغة في واقع الاستعمال الحي؛ وإلى أي مدىً أثرت علم اللغة التطبيقي بفرضيات ونتائج كان لها أثر كبير في

* دكتوراه علم اللغة التطبيقي من إنجلترا، مدرس بقسم علم اللغة بكلية دار العلوم ـ القاهرة، خبير بمجمع اللغة العربية بالقاهرة

تعليم اللغة، والترجمة، والصناعة المعجمية، والتنميط التركيبي، والتطريز التداولي، وتحليل الخطاب.

1. مقدمة

أُطلق اسم Neo-Firthians "**الفيرثيين الجُدد**" على مجموعة من اللغويين من تلاميذ اللغوي الإنجليزي الكبير جون روبرت فيرث رائد مدرسة لندن اللغوية. وتشير التسمية إلى تبنى رواد هذه المدرسة الأفكارَ اللغوية التي اقترحها فيرث لدراسة اللغة، غير أنهم طوّروها وأخضعوها للتطبيق والتحليل بمنهجيات جديدة لم تكن قد بلغت نضجها بعدُ في عصر فيرث. ويجمع الباحثون على أن أبرز رواد هذه المدرسة هو جون سينكلير John Sinclair – أستاذ اللغة الإنجليزية المعاصرة بجامعة بيرمنجهام Birmingham بإنجلترا (من 1965 إلى 2000)؛ فقد لعب سينكلير الدور الأكبر في الجمع بين أفكار فيرث النظرية حول اللغة ومنهجية المدونات اللغوية corpus linguistics methodology، كما أنه اختط في هذا الاتجاه خطًّا واضحًا اتبعه فيه عدد من اللغويين بجامعة برمنجهام أمثال: مايكل هوي Michael Hoey، سوزن هَنسْتِن Susan Hunston، بيل لوو Bill Louw، مايكل استابس Michael Stubbs، وفولفغانج تيوبرت Wolfgang Teubert، وإيلينا توجنيني بونيلي Elena Tognini-Bonelli.

وقد اشتهرت مدرسة لندن (أو المدرسة البريطانية كما تُسمَّى أحيانًا) بمبدأ فيرث في تحليل **المعنى السياقي** contextual meaning (في مقابل المعنى القاموسي)، ومبدأ **اجتماعيَّة اللغة** الذي يفيد بعدم إمكانية فهم المعنى اللغوي (للكلام) أو تحليله، ومن ثم تفسيره إلا في ضوء السياق الاجتماعي social context الذي يرد فيه. ومن هذين المبدأين (وغيرهما) انطلق الفيرثيون الجدد في تفكيرهم اللغوي (وكذلك إسهاماتهم التطبيقية) ليثيروا عددًا من التساؤلات التي تُبلور الإجابةُ عنها منهج الفيرثيين الجدد في دراسة اللغة تنظيريًّا، ومنهجيًّا، وتطبيقيًّا. ومن أهم هذه التساؤلات: 1) أين يكمن المعنى اللغوي؟ أو بصيغة أخرى، ما الوحدة اللغوية التي تحمل المعنى؟ 2) وكيف تسهم علاقة التصاحب اللفظي والتركيبي في استقصاء السلوك اللغوي للوحدات اللغوية وفي فهم الكيفية التي تعمل بها اللغة؛ 3) وما المنهجية العلمية التي يمكن الاعتماد عليها في إجراء تحليلي استقصائي للظواهر اللغوية بطريقة موضوعية واقعية وليست تخمينية حدسية؟ وما العلاقة بين الوحدات المعجمية والتراكيب النحوية؟ وهل يمكن تنميط التراكيب النحوية المطَّردة في اللغة؟ 4) وكيف تسهم هذه العلاقة التصاحبية المطَّردة (على المستوى المعجمي والمستوى التركيبي) في تطوير الصناعة المعجمية من حيث الشكل والمعلومات اللغوية التي تقدمها المعاجم عن الاستعمال اللغوي؟ 5) وهل تتم عملية التصاحب اللغوي بصورة اعتباطية؟ أم أن لها بُعدًا إدراكيًّا ذهنيًّا يجري قبل تحقُّقها لغويًّا؟ وكيف تعمل هذه الطبيعة الإدراكية في تعليم (أو تعلُّم) اللغة ـ خاصةً اللغة الأجنبية؟ 6) وإذا كانت الوحدات المعجمية أو العبارية تميل (في الاستعمال المطَّرد) إلى التصاحب مع وحدات

أخرى تنتمي إلى حقول دلالية معينة (ولا تميل للتصاحب مع حقول أخرى) ـ فكيف يُحلّل هذا الميل الدلالي؟ وكيف تسهم محصلته في تحديد المعنى النصِّي للوحدات اللغوية (خاصةً المفاهيم الثقافية أو المستحدَثة)؟ وإذا كان النظام اللغوي (وفقًا لمبدأ ثنائية العلاقة اللغوية لدي سوسيري، ومبدأ التاجميم لكِنِثْ بايك) تحكمه علاقتان: علاقة أفقية (تركيبية) وأخرى رأسية (دلالية)، وتكتسب العلامات اللغوية قيمتها ومعانيها عند نقطة تقاطع المحورين (الأفقي والرأسي) عند نقطة الاختيار التعبيري ـ فهل تخضع عملية الاختيار هذه إلى مقاصد تداولية؟ وكيف يُستنبط هذا المعنى سياقيًّا؟ ويُفسَّر تداوليًّا أو خطابيًّا؟ والمدقِّق في هذه التساؤلات؛ يلمس الاهتمام الملحوظ بالمعنى اللغوي على المستويات المختلفة، بالإضافة إلى الجانب التطبيقي في الدراسة اللغوية. ومن هنا، يمكن إجمال هذه التساؤلات في سؤال عام: كيف تعمل اللغة في الاستعمال الواقعي؟ وكيف يُحلل السلوك اللغوي للعناصر والوحدات اللغوية (بوظائفها النصية والخطابية) معجميًّا، وتركيبيًّا، ودلاليًّا، وتداوليًّا؟ بمنهجيّة تتسم بشمولية التحليل، وواقعية الاستدلال، ودقة النتائج؟

وإذا كانت المبادئ النظرية والمنهجية للفيرثيين الجدد وإسهاماتهم التطبيقية (كما تعكسها هذه التساؤلات) تمثل منطلقاتٍ لكثير من البحوث في الدرس اللغوي الغربي؛ فلاتزال غير مطروقة في الدرس اللغوي العربي. وربما لا أتجاوز الحد إذا افترضت أن الدرس اللغوي العربي لا يزال يدور في منطقة (أو مناطق) لا تحيط بكثير مما طرأ على علم اللغة من تطوير وتطوُّر، وما تولَّد عن هذا التطور من مصطلحات ومفاهيم ومنهجيات مستحدَثة. ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث في تعريف الباحث العربي بمحصلة التفكير اللغوي لدى الفيرثيين الجدد وأبرز إسهاماتهم التطبيقية، وكيف أثْرَت هذه الإسهامات الدرس اللغوي في القرن الحادي والعشرين ـ من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية: 1) ما المبادئ النظرية التي تأسست عليها مدرسة الفيرثيين الجدد؟ 2) وما الإطار المنهجي الذي يميز هذه المدرسة في دراسة اللغة من واقع الاستعمال؟ 3) وما الإسهامات التطبيقية التي أثرى بها الفيرثيون الجدد علم اللغة التطبيقي؟ 4) وكيف نفيد من هذه الإسهامات النظرية والمنهجية والتطبيقية في الدرس اللغوي العربي؟

ويجيب البحث عن هذه الأسئلة من خلال العناصر الآتية:

1. المقدمة

2. مبادئ فيرث التأسيسية في دراسة اللغة (بالمدرسة البريطانية British school)

3. أين يكمن المعنى اللغوي: البحث عن وحدات المعنى

4. دراسة اللغة من واقع الاستعمال: ثق بالنص